

محاضرة عن الزجل

إنّ الزجل الأندلسي فنّ استحدثه أهل الأندلس في أواخر القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، وبعدُ ثاني فنّ مستحدث بعد الموشح، ويتشابه الموشح والزجل ويختلفان من حيث اللغة، فالعربية الفصحى هي لغة الموشح والزجل لغته معرّبة.

أمّا أوزان الخليل، فمنها ما كان على أوزان الخليل، ومنها ما هو خارج عنه وقد تطرّق الزجل إلى الأغراض ذاتها التي اشتملت عليها الموشحات والقصيدة التقليدية. وما زال الزجل موجوداً في عصرنا الحالي، وقد تأثر بالشعر العربي التقليدي، فوجد التقاءً واضحاً بين أوزان الزجل وعروض الخليل بن أحمد، وقد تطوّر الزجل وتبلورت أشكاله وأوزانه حتّى صار على ما هو عليه اليوم.

الزجل لغة واصطلاحاً: إنّ الزّجل في اللغة الصّوت، ويسمّى الحمام زاجلاً لصوته الرّخيم، قال ابن منظور "في لسان العرب: "إنّ الزّجل بالتحريك اللعب والجلبة ورفع الصّوت، وخصّ به التّطريب"، وجاء في "العاطل الحالي" للحليّ قوله: "والزجل في اللغة، الصّوت يقال سحاب زجل، إذا كان فيه الرّعد، ويقال لصوت الأشجار، والحديد، والجماد أيضاً زجل فالزّجل في اللغة هو الصّوت بتعدّد مصادره، وقد يكون متخصّصاً بنوع من الغناء، وقيل في سبب تسمية هذا النوع زجلاً"، لأنّه لا يلتذ به وتفهم مقاطع أوزانه حتّى يغنى به وبصوت. الزّجل في الاصطلاح ضرب من ضروب النّظم يختلف عن القصيدة من جهة الإعراب والقافية، كما يختلف عن الموشح من جهة الإعراب، ولا يختلف عنه من جانب القافية إلا نادراً.

ويعرّف أحمد مجاهد الزجل بقوله "شعر عامّي لا يتقيّد بقواعد اللغة، وخصوصاً الإعراب وصيغ المفردات، وقد نظم على أوزان البحور القديمة، وأوزان أخرى مشتقة منها، إنّ تعريفات الزّجل لا تختلف عن تعريفات الشّعر، والجدل الدائر حولها هو استخدام اللهجات العاميّة وترك الفصحى، وهو ما عبّر عنه صفي الدين الحليّ في كتابه "العاطل الحالي".

نشأة الزجل:

لقد أكد دارسو فنّ الزجل قديماً وحديثاً أن الزجل هو بأُتي في المرتبة الثانية في فنون الشعر المستحدثة في الأندلس بعد الموشح ومن هؤلاء: ابن سعيد صاحب كتاب المغرب، وابن خلدون صاحب كتاب المقدمة، والمقرّي صاحب كتاب نفح الطيب. وقد أجمعوا أنّ الزجل كان موجوداً قبل ذلك الزمن، وذلك العهد إلاّ أنّه كان خافتاً عديم اللمعان والبريق، وأوّل من درس فنّ الزجل من القدامى حسب ما وصل إلينا هو صفّي الدين الحلّي (ت ٧٤٩هـ - ١٣٤٨م) في كتابه "العاطل الحلّي والمرخص الغالي" الذي فصل فيه (فنّ الزجل) ودرسه بإسهاب".

أمّا بقية المصادر الأندلسية فلم يصل إلينا منها شيء عن الزجل وخصائصه الفنيّة، إلاّ بعض الملاحظات عن الزجل، ونشأته وتدوينه وبعض الزجالين. أمّا المحدثون من عرب ومستشرقين، فقد اتّفقوا على أنّ هذا الفنّ هو فنّ أندلسي مستحدث، نشأ في الأندلس، ثمّ انتقل إلى المشرق، واختلفوا في علاقة الزجل بالموشح فمنهم من عدّ أنّ الزجل نشأ تقليدياً للموشح ومنهم من يذهب إلى أنّ نشأته ترفع إلى أغاني رومانسيّة إسبانيّة، شأنه في ذلك شأن الموشح، وهذا ما أكّده أنجل بالنثيا.

وقد تبنّى هذا الرأي من العرب شوقي ضيف، إذ يذهب بالقول "إنهما جميعاً فنّ واحد ذو شقين، شعبة تغلب عليها الفصاحة، وشعبة تغلب عليها العجمة"، وقد اتّفق مؤرخو الأدب الأندلسي على أنّ الموشح نشأ قبل ظهور الزجل، ومنهم ابن خلدون في كتابه المقدمة إذ يذهب إلى القول "ولمّا شاع التّوشيح في أهل الأندلس، وأخذ به الجمهور لسلالته وتنميق كلامه وتصريح أجزاءه، نسجت العامّة من أهل الأمصار على منواله، ونظموه في طريقته بلغتهم الحضريّة من غير أن يلتزموا فيه إعراباً واستحدثوا فنّاً سموه الزّجل".

نستنتج من قول ابن خلدون أنّ الرّجل الأندلسي جاء مقلداً للموشح ، وأهل العامّة في الأندلس هم الذين نسجوا الأزجال على منوال الموشحات، من دون أن تكون هذه الأزجال شعراً ملموساً، فهي تكاد تكون فصيحة لذلك وصفها ابن خلدون بالحضارية، إلاّ أنّها ليست معربة. وقد نعتها ابن خلدون في "المقدمة" بالحضرية لاعترافه باختلافها عن اللغة العامية . ولا يمكن القول إنّ العوام عندما عجزوا عن نظم الموشح لجأوا إلى نظمه بعامية الأندلس، وسمّوه الرّجل وذلك:

١- إنّ الذين أنشأوا الرّجل هم المتقفون الذين كانوا ينظمون القصائد الفصيحة.

٢- إنّ عامية أهل الأندلس كانت بعيدة بعداً شديداً من اللغة الفصحى لاتصالها بلهجات متعددة غير عربية من جهة، واختلاف أصول الأندلسيين من جهة أخرى "قلو كانت لغة الرّجل الأندلسي هي لغة العامّة نفسها لما انتشرت أزجال الأندلسيين في العراق وبلاد الشّام واستعذبتها المشاركة ونسجوا على منوالها" . ومن المعروف أنّ الأزجال ظهرت ونشأت قبل أبي بكر بن قزمان، ولكن لم تظهر ملامحها ولا انسكبت معانيها ولا اشتهرت رشاقتها إلاّ في زمانه. ونستطيع أن نستخلص أنّ الأزجال التي قيلت قبل ابن قزمان كانت بلغة العامّة تتعدد لهجاتها، أمّا أزجال ابن قزمان وما تلا بعده هي تطوّر للأزجال التي انتشرت في بلاد المشاركة ونسجوا على منوالها. لقد زعم بعض الباحثين أنّ الرّجل الأندلسي نشأ تقليداً لأغانٍ إسبانية المعروفة بالأغاني الرومانثية، شأنها في ذلك شأن الموشحات ويعود هذا الرأي للمستشرق بالنتيا، إذ يذهب بالقول: "إنّ سعيد بن عبد ربّه صاحب العقد الفريد، كان أوّل من نظم الأزجال وكان معنياً بكتابات الإغريق، وعلوم الأوائل والفلسفة وكان صعب العشرة يتكلم لهجة دارجة، واجتهد في تجويد الأزجال يوسف هارون الرمادي شاعر المنصور". بناء على قول بالنتيا يتّضح أنّ الرّجل والموشح ظهرا معاً ويخلط بينهما مستدلاً بما أورده ابن بسّام، وذلك لكي يرجع كلاً من الموشح والرّجل إلى أصول شعبية إسبانية والنصّ الذي استدللّ عليه بالنتيا، هو من كتاب الزخيرة الذي لم يتحدّث عن أصل الرّجل، إنّما تتحدّث عن أصل الموشح، وقد حاول كذلك إخفاء حقيقة أنّ الرّجل فنّ أندلسي، استحدثه أهل الأندلس المسلمة، وقد نشأ بعد نشوء الموشح لا معه ولا قبله، ولم يصل إلينا منه إلاّ ما قد قيل في زمن ملوك الطوائف (الخامس الهجري)، وقد اتّضحت خصائصه الفنيّة في هذه الحقبة، وما قد قيل قبل ذلك فقد ضاع مع ضياع الموشح في أوّل ظهوره، أي لم يقوموا بتدوينه لأنّه عدّوه ركيكاً. أمّا في القرن السادس

الهجري، ازدهر الزجل وقد أرجح عبد العزيز الأهواني سبب ازدهاره إلى عدم اتقان المرابطين اللغة الفصحى، إذ لم يلق الشعراء منهم تشجيعًا فمالوا إلى الزجل، وينفي محمد عباسة ذلك للأسباب الآتية:

١- المرابطون هم البربر، ولم يكونوا عجمًا، ولا يصحّ القول إنهم لا يتقنون العربية الفصحى.

٢- إن الذين فتحوا الأندلس، هم من أجداد المرابطين والموحدين، ولغتهم الرّسميّة كانت العربية الفصحى.

وقد ازدهر الزجل في عصر المرابطين وذلك لعدم اتقانهم اللغة العربية، ما أدى إلى عدم اهتمامهم بالشعراء الذين ينظمون قصائد تقليديّة، فشجّعوا الشعراء الزجالين من جهة كما كان لخروج الزجل إلى الأسواق والطّرات العامّة حتّى كثر الزجالون وسقط في اللفظ السّوقي.

مخترع الزجل: اختلف المؤرخون القدامى، عن أوّل زجّال في الأندلس، فقد ذكر صفي الدين الحلّي، أنّ مخترع الزّجل هو يخلف بن راشد وقيل مدغليس، ويذكر ابن حجة الحموي بعض الآراء، فيقول "قيل إنّ مخترعه ابن غزالة واستخرجه من الموشح، لأنّ الموشح مطلع وأغصان وخرجات وكذلك الزجل الفرق بينهما الإعراب في الموشح، واللحن في الزجل، وقيل يخلف بن راشد، وكان هو إمام الزجل قبل بن قزمان، وكان ينظم الرقيق ومال الناس إليه" فلما ظهر أبو بكر بن قزمان، ونظم السهل الرقيق، مال الناس إليه وصار هو الإمام بعده" ([١٣]). يتّضح لنا مما سبق أنّ هذه الآراء قد أوردها كبار المؤرخين إلّا أنّها ليست دقيقة، لأنّهم لم يحيطونا بالحقائق التاريخية لأولئك الزجالين، كما أنّ ابن غزالة ومدغليس عاشا في المرحلة الثالثة من مراحل تطوّر الزجل، فكيف يكون هذان الزجالان مخترعين للزجل؟ ويذكر أن ابن قزمان أوّل من اخترع الزجل، وسبب ذلك أن هذا الأخير "حين كان صغيرًا في المكتب، دخل عليه صبي صغير مثله، فناداه وأجلسه بجانبه، وصار يحييه، فأراه الفقيه على ذلك فضربه، فكتب في أعلى اللوح هذا المقطع:

والوحاش أولاد نصاره

الملاح أولاد إمارة

ما قيل له الشيخ غفاره

وابن قزمان جا يغفر

فاطلع الفقيه على اللوح، فرأى هذا المطلع فقال: هجوتنا بكلام مزجول يعني مقطعا يترنم فيقال سمّي زجلاً من هذه الكلمة، لكن هذه الرواية غير صحيحة فابن قزمان يعترف أن هناك زجليين قبله، وذلك حين عاتب المتقدمين قبله بقوله: "لقد رأيت الناس يلهجون بالمتقدمين، ويعظمون أولئك المتقدمين، ويرون لهم مرتبة العليا، والمقدار الأجل وهم لا يعرفون الطريق". لا يفتقر للفطنة ابن قزمان، يقول عنه لسان الدين بن الطيب: "إنّ هذه الطريقة الزجلية البديعية بلغ فيها أبو بكر بن قزمان مبلغاً عظيماً فهو آية وحجتها البالغة وفارسها المعلم والمبتدئ فيها والمتمم". وقد قال عنه الحجازي إنّّه "كان في أول شأنه مثقلاً بالنظم المعرب، فرأى نفسه تقصر على شعراء عصره كابن خفاجة وغيره، فعمد إلى طريقتة لا يمازحه فيها أحد، فصار إمام الزجل المنظوم بكلام عامة الناس". فابن قزمان إمام الزجالين في جميع العصور، عاش في عصر المرابطين وأدرك عصر الموحدين، واعترف له المؤرخون بتطويره لهذا الفن، وإبداعه فيه وبعده إمام الزجالين بالأندلس على الاطلاق.